(في الحسين)
الشكل والمعنى

الأستاذ دكتور
عباس محمد رضا
جامعة بابل / كلية التربية

(في الحسين) الشكل والمعنى

الأستاذ دكتور
عباس محمد رضا
جامعة بابل / كلية التربية

صفر أو (قبل النص):

قُربَ توفي الشاعر محمد حسين كاشف الغطاء وُلِد الباحث، إذن قَرب كُتبت القصيدة ولد الباحث، لأنها (تنشر لأول (كذا) مرة)[١] بمعنى أنها كتبت في آخرةٍ من عمر الشاعر. فكانت القصيدة تنتظر النشر طويلاً حتى نشرت عام ٢٠٠١ في ضمن (أدباء الطف أو شعراء الحسين(عليه السلام)) عن مؤسسة التاريخ بيروت لبنان[٢]. ثم انتظرت طويلاً مرة أخرى لكن أقلَّ من انتظار النشر حتى تناولته بالقراءة والقراءة[٣]، وقد فتح الله سبحانه عليّ بما سأقول وأفعل.

١. النص:

١ ماذا يذم المرء من أخلاقها ... دنيا ذعاف السم در فواقها
٢ بينا تريك بشاشة وإذا بها ... حشدت عليك الرزء من آفاقها
٣ ما راق منها مشرب الا وقد ... سلت عليه بارقات رقاقها
٤ معشوقة لم ترتض في مهرها ... إلا ببذل العمر من عشاقها
٥ خضراء تهواها العيون ولم تكن ... في الخبر إلا حنظلا بمذاقها
٦ ما تم بدر مشرق في جوها ... إلا رمته بخسفها ومحاقها
٧ كم من وفي العهد قد غدرت به ... والغدر خير سجية بخلاقها
٨ طرقت علي بمستقر ملمة ... ما خلت ان ابقى على استطراقها
٩ نزلت بأقصى الري إلا أنها ... قد سودت بالحزن وجه عراقها
١٠ لهفي على الظعن المجد الى العلى ... متحمل الاقمار فوق نياقها
١١ سيقت ظعائنهم تخب وما دروا ... ان الحتوف تساق اثر مساقها
١٢ حتى اذا بلغوا وما بلغ المنى ... عثر القضا فكبت على اعناقها
١٣ واستترل البدر المشعشع مشرقا ... منه البدور تغار في اشراقها
١٤ واستخطف الاسد الملبد باسلا ... تعنو له الاساد من اشفاقها
١٥ وانحط عن أوج الفخار بنسرها ... مردي نسور الجو في آفاقها
١٦ من سام هضب علاك يا سامي الذرى ... هضما فحطك عن سماء رواقها

١٧ هـذا الـذي خطبتـه أبكـار العلـى عـن رغبـة فـي مجـده بصـداقها
١٨ ذا حـائز قصـب المفـاخر ان جـرى كـان المجلـي فـائزا بسـباقها

٢. وصف النص:

عنوانه في الحسين (عليه السلام) القصيدة متوسطة الحجم من ١٨ بيتا، غير مصنفة في ضمن غرض شعري، إذا شرحناها قتلناها وضوحا، وإذا مخضناها أعطت بعض الخفايا، وإلا فمن لا يعرف الدنيا؟ ومن لا يعرف التكرار مثلا؟ ومن لا يستطيع تقسيم القصيدة الى فقرات معنوية؟ إذن ونحن نرفض مثل هذا التبسيط علينا أن نقرأها قراءة مغايرة، وإن استندت الى بعض من تلك المنطلقات التي هي من سماتها.

٣. المنهج:

من حقنا أن نستخرج من النص ما يوحيه لنا، ومن حقنا - من هنا - أن نعيد قراءة النص بل كتابته[٤] وفي ذلك صلاحية الشاعر والنص والقارئ، ومن ثم صلاحية كينونة النص وكونيته وكائنيته، فالنص رأس مال متجمد في خزانة الكمون، يستثمر بالقراءة، والاستثمار مستويات، الشكل ظاهر القول ورأس المال الثابت، والمعنى باطن القول ورأس المال المستثمر، والمعنى كائن في الشكل راكد الى حين تحريكه بالقراءة، وكلما إزدادت الحركة انبعثت أشياء لتدل على أشياء، أو أسرار تدل لتدل على أسرار أخفى، وهذا هو فلسفة البحث.

لا نقرأ النص بمعيارية ما في الذهن عن الشكل والمعنى وانما نقرؤه بما ينبعث منه من مظاهر الشكل المفضية الى المعنى واهمها التلازم والقصدية وبالعكس.

٤. عنوان البحث:

لم هذا العنوان؟ وما مفاده وما الغاية منه؟ ابتداء نتوقع سؤال سائل: وأي نص ليس شكلا ومعنى حتى تكون مشكلة هذا البحث الشكل والمعنى في النص المدروس؟ نجيب: (الشكل الذي يفضح السر وأخفى أي هو الشكل الذي شيف عن الشعر لا الذي يتدلى بالشعر)[٥] ونقول ايضا انه (في الإنشاء الشعري يستخدم الشاعر الكلمات ويركبها جماليا ليخلق منها صياغات تعجنها الإحساسات، وهذا يجعل اللغة ترتعش وتثغثغ أو حتى تغني وتهتف)[٦] فيكون والحال هذه للنص جذب وتأثير بخصوصيته وتفرده.

لا نعني بالشكل ما عُنيَ به في النقد القديم من ألفاظ وتراكيب بصفتهما وعاء يعبر عن المعنى حسب[٧] وانما نعني تلازم[٨] المبنى والمعنى[٩] وتبادلهما التأثير، فبالشكل يتقوم المعنى ويقرأ (ماذا)؟ وبالمعنى يقرأ الشكل عودا على بدء (كيف)؟ ولا يهمنا من الشكل والمعنى إلا ما يوحي بشيء خاص منماز منحاز، وليس اي شيء،

وما يضيء جانباً من القسيمين معادلا كل على حدة، وانما نهتم بالمعنى المتشكل والشكل المتمعنى.

٥. أقسام النص:

يمكن تقسم النص على وفق أقسامه موضوعيا، وهي: الدنيا ب ١ - ٧/ الطرق.. الحزن ب ٨ - ٩/ قدوم الظعن واللهفة عليها ب ١٠ - ١٣/ التحولات والمتغيرات ب ١٣ - ١٥/ الختام: الفوز بالجنة والانتصار على الدنيا ب ١٦ - ١٨.

٦. ترابط الأقسام:

ستجليه الدراسة برمتها من خلال الآليات الفنية والدلالات البينية وقراءة البؤر الموضوعية.

٧. القراءة:

أ . الآليات الفنية:

أولاً: السرد قالبا إخباريا

القصيدة إخبارية - معظمها -، والأخبار فيها صادقة تماما، عدا المطلع فهو انشاء: استفهام ظاهري، دلالاته عميقة، ستجليها القراءة لاحقا، وعدا (مطلع الختام) ب ١٦، وهو بداية نهاية القصيدة ب ١٧ + ب ١٨، هذا المطلع انشاء ايضا، أمره أمر المطلع لكنه يختلف عنه في أنه استفهام استنكاري، وله دلالته ايضا، وستأتي.

الغرض كله خبر صرف أهم ما فيه خبريته انها تشبه الانشاء من حيث لا تحتمل غير الصدق[١٠].

لا نعني بالسرد التتابع في ذكر حوادث قصة وإنما طريقة الترتيب[١١] حتى وان كان منطقيا متسلسلاً بلا خلخلة، هذا أولا، ثانيا تنوعت الإخبار فكانت فعلية واسمية، مثبتة ومنفية، مبنية للمعلوم وللمجهول.

البناء التقليدي يتكون من بدء وعرض وختام[١٢] وينموا البناء الى الذروة ثم يضمحل تنازلياً بحل العقدة.

هذ النص ليس سردا قصصيا وانما بناء سردي قصي لا قصصي، بمعنى ليس حكائيا يذكر حادثة، بل يسخلص لبابها، هكذا نفهم أمر السرد، هذا النص لم يكن تقليديا في بنائه ولم يكن قصصيا في سرده، بدأ بالذروة (حال الدنيا) مستخلصة من تجارب الانسان، ثم جاءت العقدة الحادثة مركزة في ذروتها ايضا/ لبابها، لا في تتابع تفصيلات حوادثها الجزئية، وأخيرا لم يكن الختام حلا للعقدة بطريقة يخترعها المبدع، وانما هو حل إلهي كوني دنيوي أخروي منطقي غيبي.

هكذا هو ترتيب أقسام النص، وهكذا أخبر النص عن نفسه باخباريته، وأخبر

عن الآخر الذي فيه: الدنيا بما فيها، الحسين (عليه السلام)، وغيرهما.

فالإخبار مهيمن على طريقة القول من جانب، ولم يتخل الشاعر عن كون مفهوم السرد قصا من جانب آخر في صميم العقدة الذي كان القص نفسا في رئتها لأنها تتعلق بالحسين (عليه السلام) حصرا، وان شأن الحسين (عليه السلام) حادثة تاريخية اجتماعية سياسية دينية واقعية فريدة خارقة انسانية ليس لها مثيل.

وليس ضروريا بعد ذلك أن يتوافر كل عناصر القصة وآلياتها في نص غنائي وجداني، ذلك أن قصة الحسين (عليه السلام) معروفة وترسخت في حافظة الاجيال وهي حية في ذاكرتها، يقتلها ذكر تفصيلاتها فتوراً، وكلما كثفت واختصرت كان أنفع، هكذا هو شأن نصنا سردياً.

ثانياً: الإرصاد

الارصاد من أرصد الشي أعد له[١٣] كأن الشاعر يعد المقدمة للغرض، والإرصاد صلب البحث لأنه صلب النص، لا نعني به الفن البلاغي البديعي المعروف[١٤] وإنما ما يقدمه الشاعر بين يدي غرضه/ أغراضه من ممهدات تومض بما سيكون عليه الغرض، موضع هذه الممهدات في المقدمة/ الافتتاح، وشرطه أن يتناسب والغرض المنشود سلبا وايجابا، إذ هو - الارصاد - العلاقة بين المقدمة والغرض.[١٥]

بصورة عامة أشرنا الى وجود علاقة كلية بين أمر الدنيا والحسين (عليه السلام) في أكثر من جانب أهمها أن الدنيا غدّارة والحسين (عليه السلام) ينتصر عليها.

بصورة خاصة نشير الى وجود علاقات جزئية تفصيلية بين المقدمة والغرض، إذ أنَّ المقدمة تعبير بالصورة، وإن تخللتها أبيات تقريرية، والغرض تعبير بالتقرير وإن تخللته أبيات صورية، وكلاهما قائم على التغيير والمغايرة، تغير الدنيا على أهلها، وتغير أحوال الحسين، وهذا يدخل في باب الموانع، إذ سعت الفئة الظالمة الى حرف الظعن عن تحقيق أهدافها ظلماً وحسداً وطغيانا واستحواذاً، هذه الموانع فيها حاجة الى مقاومة لاجتيازها مادياً ومعنوياً فكان ان سادت المعنوية على المادية، وخلل الدنيا لا بدّ أن يوازن بميزان الشريعة العادل.

المقدمة ذم الدنيا، وهي من المقدمات المستحدثة نوعاً ما فكان الإرهاص لها في مقدمات ذم الزمان والشيب مثلاً، إذا كانت مقدمة النص (الدنيا) الى زوال فالأبيات الأخيرة من النص خاصة تحقيق لخلود الحسين(عليه السلام) وتخليد له، فمن أراد الدنيا فليكن معها كما كان أعداء الحسين(عليه السلام).

ومن أراد الفوز فليكن مع الحسين (عليه السلام) كما كان أنصاره معه، ب٤ / ب ١٧ المعشوقة في البدء غيرها في المتن، وكذلك الصداق، المعشوقة في البدء تستهلك

عشاقها (تآكل)= خسارة العمر، المعشوقة في البدء مخطوبة من العلى (نماء)= خلود، الصداق في البدء خسارة، الصداق في المتن زكاة، الحسين (عليه السلام) خير من دُعي فأجاب والخطبة خير خطبة من العُلى، وقد يسرب المخزون الذهني ما حفظه من قصة إبراهيم الخليل مع ربه صادقا وهكذا هو الحسين (عليه السلام).

وفي أمر الخطبة انزياح، إذ هي من النساء، هنا من الحسين(عليه السلام)، ثم هي لم تكن إلا من (أبكار العلى) وعن رغبة في مجده وتمجيده، وصداق من هذا النوع ليس مهراً اعتيادياً، لكنما كأن العلى إشتاقت إليه فبعثت بالملائكة تزفه الى الله زفاً.

ولا يقتصر الارصاد بين المقدمة والغرض وإنما يكون بين ابيات الغرض نفسها: ب١٢ (وما بلغ المنى) (عثر القضا) يوحي بان الأمر لا يمكن أن يبقى هكذا، فالظاهر يبدو كذلك ولكن بعد الظاهر باطنا، والجهاد خاتمة الفوز ب١٨.

بين ب١٠ و١٧ علاقة ب١٠ الظعن المجد الى العلى لكنها واجهت موانع أراد ت كبوتها، التعويض أين؟ في ب١٧.

بين ب١٥ و١٨ علاقة: انحط عن أوج الفخار، النتيجة (ذا حائز قصب المفاخر) ولكن ذلك لم يحدث إلا بفعل فعل ثوري منماز.

تراكم الصفات السلبية للدنيا تسوغ خروج الحسين (عليه السلام) للتغير/ الشهادة، الشاعر لم يراكم عبثا، أولاً لبيان هول الدنيا الراتبة عليه ثم لترشيح مشروع ضخم قبالتها لا يقوم بها إلا ذو عزم خارق.

وللدنيا وجه آخر في ميزان الكون وجه مضمر غائب صاف يصيح من يصلح الخلل؟ أجاب الحسين (عليه السلام) بالذي أجاب من انتصار الدم على السيف ومن مكافحة الملائكة للشياطين.

ثالثاً: القافية

عامة (ها) بعد (ق) طبعا، (ها) في بعض أجزاء النص امتلاكية، الدنيا أنانية حتى في أخلاقها السيئة، تعتز وتغتر بها، لا تعطيها لأحد غيرها، فالأخلاق المذمومة الكثيرة كما ونوعا هي أخلاقها لا أخلاق غيرها، والسم سمها كذلك آفاقها، أما رقاقها، فكأنها جاهزة للإنسلال في حالة تقدم أحد لمشربها هي، صحيح أن (ها) ضمير يعود على الدنيا لكنها هنا تعطي معنى ومعنى، وفي غير هنا تعطي غيراً.

ثم هي تشبع (هاااااا ...) فتعبر عن نهمها وجشعها.

القافية الخاصة مساندة للعامة، وقد جاءت كلها/ جلها، إلا واحدة في المقدمة (الدنيا) لتؤكد صواب تأويلنا إياها.

أما في الغرض فانها إذا عادت على غيرها أساءت إليها وشاكستها: ب١٠ وما بعدها، لانها تغار من امتلاكية الآخر بل تحاول أن تنتزعها لنفسها توهماً منها، وليس

الأمر مجرد تجمعات صوتية متماثلة متوزعة من أجل التنغيم[١٦] وإنما هي صميمية جدلية ترابطية أخذا وردا، فاذا كان تعدد(ها) يعد أحد الأضواء المسلطة على ذات الباث[١٧] فانه بالمقابل أحد الأضواء المسلطة من ذات الباث على الموضوع، إذ أنه يحس بأنانية الدنيا والقائمين على شؤونها، لذا راح يحققها رداً على إمتلاكيتهم في القافية العامة دون الخاصة للدلالة على طبيعة أمر الحسين (عليه السلام) وخلافية أمر الطغاة من الحكام.

رابعاً: التكرار

معظم التكرار في النص اشتقاقي: غدرت، غدر/ اطرقت، استطراق/ سيقت، تساق، مساقها/بلغوا، بلغ/ مشرق، اشراق/ انحط، فحطك/ فخار، مفاخر. وبعض التكرار مفرد وجمع: أسد،آساد/ بدر،بدور، وبعضه تشابه بل تساو: العلى، وبعضه ترادف: صداق/ مهر.

لا يبدو الأمر لنا، لا سيما في التكرار الاشتقاق فيي انه محسن لفظي أو طلاء للزينة أو تكلفاً من الشاعر من باب التداعي الاعتباطي، كما قُرئ في علم البديع قديما وسموه الجناس والتجنيس[١٨] وانما نرى ان التكرار ولا سيما الاشتقاقي نابع من قلب الحدث الشعري لتركيز حدثيته[١٩].

خامسا: الرمز والترميز

لم يخل النص من اشارات رمزية واضحة وضوح البدر/ البدور، النسر والنسور، الأسد والاساد، كل أولائك عن صورة الحسين (عليه السلام) وأهل بيته الاطهار الطيبين، وإن بطن شيء فهو واضح أيضا، فما الدنيا إلا بنو أمية، لكليهما الصفات نفسها والسلوك نفسه غدرا أو تغير أو خداعا وقسوة و...، والصورة في ترميز ب٦ ليست اعتباطية، وإطلاق صفة مشرق على البدر جمع بين صفات القمر والشمس، أما في جوّها فعلوّ وتسامٍ وانفتاح على آفاق وآماد لا تنتهي، وقد صدقت نبوءة الشاعر وهي صادقة أصلا، فالقصيدة كلها رمز تاريخي[٢٠] أو تاريخ رمزي غير ذي حدود ذابلة وانما يافعة يانعة طرية نامية منفتحة على افاق قراءات انسانية تتجدد بتجدد الزمن.

ب. القراءة/ بين بين:

هي بؤر بين الموضوعية والفنية تشكل ثيمات جدلية النص[٢١] منها: التكثير والحصر وقراءة البيت بين الاستمرار وقطع الشطرين.

التكثير: ماذا وكيف؟ + - تكثير الذك لأخلاق الدنيا بالاستفهام (ماذا) وهو اسلوب يُتداول في الحياة العامة، وتكثير غدر الدنيا باوفياء العهود، وهذا من المفارقات المفارقة جاءت على طريقة كم الخيرية، على حين جاء الأول بالوصف: دنيا ذعاف السم در فواقها= تكثير مع استمرار ودوام.

المفارقات المتضمنة مفاجآت: تريك/ حشدّت/ الاسلوب (بينا) ... راق مشرب ... سلت عليه (ن في واستثناء)= ما إلا... خضراء/ في الخير حنظل (نفي واستثناء) لم تكن إلا.

تم بدر/ رمته .. (ما إلا) ... سيقت ظعائنهم تخب/ الحتوف تساق (ما دروا) .. بلغو/ عثر القضا، مسبوق بـ(حتى إذا) [كان] (عثر) [كان شيء آخر] .

وقد تشكل حزمة من المبنيات للمجهول بالسرد والعطف التتابعي مفارقة أخرى: واسترتل واستخطف وانحط، مفارقة التحول في الحدث من حال الى حال.

نلحظ ان أسلوب النفي والإستثناء أكثر الاساليب لصناعة المفارقة، وفيه دلالة على حدة الدنيا وقسوتها لانها للحصر.

ونجد في ضمن هذه المفارقات (تميزا وتفردا) حتى تتوازن الآلية البينية: الحسين (عليه السلام) بدر البدور تغار منه، الحسين (عليه السلام) اسد الآساد تعنو له، الحسين (عليه السلام) نسر ويردي النسور.

وفي القراءة أو القطع ثمة آلية التوقع: أما أن يكسر أو يأتي مجهول أو يبقى الأمر حياديا، ب١ ماذا يذم؟ يذم ما يأتي.. (كسر) ب٢ توقع ب٣ وقد (كسر) ب٤ لم ترض ماذا؟ (كسر) ب٥ كسر ب٦ كسر ب٧ ومجهول ب٨ كسر ب٩ كسر ب١٠ حياد وتوقع ب١١ توقع ب١٢ توقع ب١٣ تكملة محايدة ب١٤ حياد ب١٥ مجهول ب١٦ توقع ب١٧ حياد ب١٨ توقع مجهول، وإذا علمنا أن المجهولية كسرية تقريبا، وقبل ذلك نصنف الأبيات كسر، علمنا أن في الأمر سراً فنيا ينفتح على موضوعة استجلاب للخلابة التي هي من مكونات بنية النص وهيكليته ولعبته، وهذه كلها تمهد للإنفتاح على بؤر موضوعية صرف هي بيان وتفسير وشرح للمفتاح والسياج والباب.

ج. القراءة ـ البؤر الموضوعية:

وتسمى المهيمنات الثيمية، أولها المطلع، وللمطلع أهميته إذ هو أول ما يواجه المتلقي فيترسخ عنده وربما عاد إليه ثانية وثالثة ليتشبع به ومنه ويمضي قدما بعده لأنه بداءة الطريق بل والصوى فيه/ فيها ايضا، وربما على أساسه يتحدد فهم ما يعقبه، وكثيراً ما بقيت المطالع في الذهن (الحافظة) دون سواه من سائر أبيات القصيدة للأسباب الآنفة، وربما لتكثف المطلع واكتنازه وقدرته على الجذب والإضاءة؛ لذا سندرسه كيانا له كينونته.

ينطوي المطلع على انشاء وخبر تموضعا بالتساوي بين الصدر والعجز، الانشاء استفهام والاستفهام خرج الى غرض مجازي لا يريد جوابا وإنما ليدل على تكثير المذموم في الدنيا بل القول بعدم استطاعة المرء الاحاطة بـ(ماذا) ويدل على الذهول والتعجب والاستغراب من كونها هكذا والتحسر على ذلك، كل هذا يكتتره ويشعه الصدر، وعلى هذا الأساس تنفتح في الذهن صفحة يسطر فيها القاري ما يشاء

من سلوك سلبي للدنيا مع البشر، فهي تحارب الانسان وتضاده وتعاكسه وتشاكسه، ووو الى ما لا نهاية. وهذا خلل في طبعها وطبيعتها. أمن مصلح؟ لنر أيستمر في الذم أو يدعه؟ وماذا يحدث لو استمر؟ أيغير كل منهما على حدة أو مجتمعين من الأمر شيئا؟ الى الآن لم ندر على من/ ما يعود الضمير (ها) مرأة؟ أنثى حيوان مفترس؟ أو غير ذلك ؟ وهذا شعرية أولى بتآلف استفهامين: ظاهر (ماذا) وخفي ينبثق أثناء القراءة فيضخم الشعرية بالانفتاح على عدة احتمالات منها على سبيل المثال بني أمية، وما أدرانا لعلها (الدنيا / بني أمية) رمزان يتبادلان مفهوميهما، (دنيا) لها دلالات منها: عند قراءتها منفردة، أي عند التوقف عندها – للتعريف – أي اجابة الاستفهام: على من تعود (ها)، للتحسر والتاسف لغدرها، وتاتي الجملة لوصفها أو توصيفها، وممكن أن تقرأ: دنيا ذعاف السم، فكأن ذعاف السم أصبح صفة لها ثانية، فتكون (در فواقها) مفتوحا على/ الى ما سيأتي أو ما أنف وهو ذعاف السم. وفي أقل احتمال أن دنيا مستقلة كذلك العبارة بعدها فان عبيرا من ذعاف السم يلامس دنيا أرادت أم لم ترد. وهاك قراءة أخرى: في الأقل أن دنيا متجاورة مع ذعاف السم فكأنها كتلة واحدة، ذعاف السم سمة راسخة فيها.

العجز يجب ابتداء. (دنيا) وللدنيا هنا شؤون وشجون، أوله تعريف لـ(ها) وبعد ذلك اسف لسوء فعلتها. فالبدء ذم للزمان وأهله، العجز إذن خبر ولكن أي خبر؟ خبر معروف مخبور مراراً ولكنه في كل إخبار يتجدد وكأنه يحصل أول مرة، وهذه سمة سلبية تضاف الى اخلاقها وهي سلبية، لكنها ايجابية للنص، وقد يذهب احد الى أن هذا تشاؤم أكثر من اللازم، ولم لا؟ وهل بعد مباهجها الخداعة – لمن انخدع بها - إلا الويل والثبور؟ هذا عامة اما خاصة فانها تهيؤنا الى ما سيأتي وتشوقنا الى ان هناك أمر سيحدث مهما جللا، ما هو؟ العنوان يضيء لنا فيقول بان الحسين (عليه السلام)محور النص، ولكن كيف؟.

الخلل يضرب باطنابه في عالم الدنيا والنص، فهي افتراق وتقلب تفجأ صاحبها بعد إمهاله، ولا بد من لحاظ ان التحول والتغير من عادة الدنيا فهي تتقلب بلا مسافة زمنية أو مكانية وبلا تمهيد.

الخلل يضرب باطنابه في عالم الدنا والنص، فهي افتراق وتقلب تفجأ صاحبه بعد إمهاله، ولا بد من لحاظ ان التحول والتغير من عادة الدنيا فهي تتقلب بلا مسافة زمنية او مكانية وبلا تمهيد.

(بينا) أولا اشعار بتحول سريع من حال الى حال مغايرة، (بينا) تهيؤك لتحول او مفارقة او اختلاف، فتخفف من تركيز/ كثافة (واذا) الفجائية الاتية الآنية، فلو اكتفى بالاخيرة لكان احسن واضمن للفجاءة. فلو قال مثلا: تلقاك بالوجه البشوش اذا بها، لكن الوقع أكبر قليلا، ولو جاءت (فاذا) لكن الوقع أكبر قليلا مما قبله، اي أكبر مما قبل مرحلتين؛ لان الفاء تستأنف وفي الاستئناف فجأة إضافية ليست في (واذا): كأن الواو

عاطفة او حالية دائمة غير حركية. الواو مع إذا اضعفتا الفجائية ايضاً[٢٢].

لوحة من ٤ أبيات ب٣ - ٦، المشرب خالٍ من البشر، والسيف لم؟ لم سلت؟ على من؟ ولم بارقات؟ كل هذا لمنع الشرب نهارا وليلاً، وتخيل ارتواء الواردين ودفعهم توهماً رعباً من الحقيقة. اللوحة تتكون من: نفي، اثبات، اثبات، نفي. وتنغلق على النفي أولاً. ثم لم المشرب صورة للدنيا؟ ان في ذلك لومضا الى مصاب الحسين(عليه السلام) وأهله في العطش الذي فرضه عليهم الظالمون، وربما حتى الى جهاد قمر بني هاشم العباس(عليه السلام) في اقتحامه المشرب من أجل عيال الحسين (عليه السلام) واستشهاده دونه ودونهم، وربما هنا توسعية في القراءة لا تقليلية، وهذا معنى احتشاد او حشد الرزء من الدنيا بل من آفاقها على المرء في ب٢ كأن للرزء آفاقاً متنوعة وهي سلبية حتما ولا نهاية لها وكأنه جيش يجيش. ب٦: بدر مشرق في جوها، تريد الاصلاح والخير. الدنيا العدو على الرغم من ظلاميتها ترمي البدر بلا استحياء، بصلافة. الحسين(عليه السلام) اشعل لهم شمعة ولغيرهم، بدل أن يلعن الظلام. لكنهم كفروا بالنور الذي جاءهم فأطفأوه آنيا جسديا ظنا منهم أنه انتهى وما دروا أن النور سيغرق العالم بشعاعه الى يوم يبعثون. الحسين(عليه السلام) بدر والاعداء محاق وخسف، بل هما أحسن منهم قطعاً. هنا تصح نظرتنا الى توحد مفهوم الدنيا وأمية لأنهم هي وهي هم سفليون اصحاب، ب٤: أنانية اثرة استغلال بشاعة حزب واحد، كل هذا وارد، وبدل ان تتبادل المعشوقة العشق من العاشق تستترف طاقاته، تستهلكه تهلكه تغويه، ب٥ يذكرنا بحديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم: (إياكم وخضراء الدمن) قصور بني أمية وهيآتهم جذابة خادعة للدنيويين. وقلوبهم واجفة خائفة ونفوسهم خاوية ضارية، حكموا باسم الدين بالشعارات البراقة الكاذبة. المعشوقة الانانية تخدع بالمظهر السطح وتؤذي بالمخبر العمق. ب٦ حسد العدو القمر إذا بدا وتم وهو باد وتام دائما فماذا يفعل غير أن يرميه بسلاح من صنفه مناوئ له تماما في النوع ذلك حسداً من عند انفسهم، لم يستطيعوا ان يرموه بنور آخر وأنى لهم ذلك ؟ !!! الى هنا اللوحة فعلت شيئا، اللوحة خراب في دمار، انتظار ماذا سيحدث بعد هذا؟ الشاعر حشّد لها الحواس: الذوق والبصر واللمس بصورة ثنائيات متقاطعة حتى إذا وصل ب٧ وأمره غير (تحول) من نوع آخر من المقدمة الى الغرض نتوجه من الماديات الى المعنويات.

الوهلة الاولى يبدو الافتتاح ذاتيا والغرض موضوعيا الى حد ما، (إذ تتحول الانا الى الآخر وقد يتحد الضدان في المعنى، والذات تصير آخر ، فأنا الشاعر تتحد مع الآخر)[٢٣]، ودليلنا على هذا أن لهفي على الظعن حول الأمر من الموضوعية الى الذاتية، كما حوّل أو تحوّل من الدنيا الآسرة الى الآخرة المطلقة المتمثلة في حملة الحسين (عليه السلام) المباركة، فكان الوفاء بل الاخلاص بل وكثير منهما المحملان بأعباء

الرسالة قد قطعا اشواطا ومفازات في سبيل الله، كل هذا وقد غدر الغادرون من الاعداء المعلنين الملعونين، ومن الاصدقاء أو من يُسمون بذلك، فمالت الدنيا، فما كان من الشاعر إلا أن استعمل السخرية ليسخر من سخرية القدر فيعد الغدر سجية بل خير سجية، وما كان في الامر شيء من سجية أو خير أبدا، وقد يريد أنهم تسجوا به كأنهم لم يجدوا اسوأ منه لأنفسم، إلم يكن ذلك من غواية الشيطان وهو لا يغوي إلا الغاوين؟ وهم في ذلك مكثرون ومتمادون.

كأن الغرض يبدأ من ب٨ (طرقت علي) من الضرب لا من الطيف، إذن ليست من خطرت خطرة وإنما من نزلت نازلة وطرقت طارقة (ملمة) وهي دائبة الطرق بالتذكير فيثار الذكر والتذكر والذكرى، ويبدو أنهما: الطارقة والذكرى: ذكرى الطيف متلازمان وقارتان ودائمتان ومتماديتان لا تدعان مجالاً لمزيد من بقاء فهما آكلتان وتفعلان بالانسان ما تفعله عوامل التعرية في عناصر الطبيعة.

ب٩ الشاعر يتلقى الضربات هناك في الري، ولكن ماذا يحدث في العراق؟ غير الحزن الذي سوّد وجه العراق؟ أنفصام مكاني وزمنية شاملة مشتملة على النفوس بدرجة واحدة الشاعر هناك لكنما روحه هنا.

ب١٠ جسر حزن من جهة – بعد أن كان ب٩و٨ تمهيداً له إذ أشار الى فاجعة الطف، وقد ألهمه التداعي ذكر الظعن متحسراً عليها مصوراً بؤرة الغدر – ومن جهة أخرى قوة سائرة لازالة ألغام الموانع في طريقها وطريق الإسلام التي هي هي، ب١١و١٢ الشاعر يستحضر الحادثة ويركز على المظلومية والتحسر لأنها كانت تسير في المجهول المحفوف بالمخاطر، دعا الشاعر على الموت ليموت ولا يصل إليهم ولكن... ب١٣و١٤و١٥ فيها تشتغل المجهولية والمطاوعة. ما في الغرض الآن يوازي ما كان في الافتتاح أو أن هذا صدّق نبوءة ذاك: تحولات خطيرة (استترل واستخطف وانحطّ) الابيات تشكل لوحة ما كان لها أن تتحقق لولا أن الدنيا تسير ضد تيار الحياة والحق والخير، والمؤمن في الدنيا مبتلى، ب١٦ الخروج من المظلومية الى الخلود الذي تحق للحسين(عليه السلام) يريد الشاعر أن يخلده من جديد تخليداً شعرياً بخطبة أبكار العلى منه.

هذه هي الأفكار الاساسية ومرتكزاتها الموضوعية في هيكل النص، وفي كل ذلك تتجاذب (الجدلية) وتتلألأ نسغاً في عروقه، والجدلية من الفتل أو الخصومة[٢٤] كلاهما يصح مع نصنا: الفتل من حيث أن الأجزاء متلازمة على وفق مبدأ الثنائيات المتضادة وتراكمها خاصة، وتعني الخصومة من حيث أن الدنيا والبشر في حالة إفتراق وتصارع[٢٥] إذ كل شيء خارج عن القوانين العامة السارية بخط مستقيم؛ يستثير حافز القول، فالتوافق الدائم مع الدنيا لا يثير معنى شعريا شعريا وإنما يكون فاتر الحرارة ودرجة عاطفته واطئة.

بدء الختام:

ب١٦ من سام – استفهام استنكاري: لا أحد يستطيع ان يحطك، هذا مرحلة جديدة للنهوض في النص، ب١٦ اختتام بالشرط أو الاستفهام، الاحتمالان واردان، ب١٧ استعمل الاشارة والإسم الموصول ليعوض الغياب بالحضور، ب١٨ وهو البيت الأخير: واستعمل قبل الاخير (هذا) استعمل في الأخير (ذا) كأن التنبيه إنتفى والمعنى أصبح حاضراً، ومن أجل هذا أيضا حذف الذي.

الختام:

ب١٨ اشارة ختام بالانتصار والفوز بالجنة، في النص إرهاصات الى أن حادثة الطف ثورية تقدمية لا نكوص ولا تراجع.

ليس إعتباطاً أن تكون المقدمة في الدنيا والغرض في الحسين(عليه السلام)؛ الدنيا زائلة والحسين (عليه السلام) باقٍ، يريد النص أن يقول: الدنيا في جهة والحسين (عليه السلام) في أأخرى وانها عرضت عليه لذا كانت في الافتتاح، وتأخر الغرض لأنه المآل، كأنه يبدأ من الأرض وينتهي الى السماء، ومن الدنيا الآسرة الى الآخرة المطلقة، من السفلى الى العليا ومن المادة الى الروح، وكثيرا ما اقترنت الدنيا بالآخرة في القرآن الكريم[٢٦].

إذا كانت الدنيا ممتدة فهي محدودة وقفت عن حد، أما الحسين (عليه السلام) فتمتد عظمته الى آفاق أفقية وعمودية، وهو الحسين (عليه السلام) اصله ثابت وفرعه في السماء.

هوامش البحث

(١) أدب الطف ج٦١/١٠ (أوراق مستنسخة من الانترنت).
(٢) نقل لي الأخ الدكتور سعد جواد أن مصدر القصيدة والتعليق عليها الذي افتتحت به هما من اعداد جواد شبر تحت عنوان أدباء الطف أو شعراء الحسين (a) من ق١ هـ الى ق١٤ ج١٠، ط١ وان الشاعر عاش (١٢٩٤ - ١٣٧٣هـ).
(٣) لم تدرس من قبل سواء بالاستفسار أو بتفحص المظان.
(٤) ظ الاتجاهات النقدية الحديثة ١٢٢.
(٥) العمل الأدبي في المعنى الى الشكل ٥٥.
(٦) ظ هامش ٤.
(٧) هذا دأب نقدنا العربي القديم ظ تاريخ النقد العربي الى ق٦٦/٤ وما بعدها.
(٨) مثل هذا التلازم من مفاهيم الوحدة والبناء في المناهج الحديثة النصية ظ بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر ١٧ وما بعدها، ولكننا لا نستطيع أن نغفل عن ما توصل إليه عبد القاهر في النظم وإن اتجه اتجاها آخر ظ دلائل الإعجاز ١٩٧ وبعدها.
(٩) استعرنا المصطلح مزيجاً من وحي تمام حسان ومن المناهج الشكلية الحديثة ظ نظرية المنهج الشكلي ١٨٠ والمبنى الحكائي في القصيدة الجاهلية ١٧.
(١٠) لا نرى الإنشاء غير الصدق بعينه سواء أكان حقيقياً أم خرج الى أغراض بلاغية.

(١١) ظ نظريات نقدية وتطبيقاتها ١٤٧، لا نرى القصة من الشعر أصلاً ظ نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ٩١، أما الشعر القصصي او القصص الشعري فإننا نراه جنساً أو نوعاً له حدوده الخاصة به وإن تخللته صور شعرية.
(١٢) يصح هذا مع الشعر والنثر.
(١٣) مختار الصحاح ر ص د.
(١٤) ظ جواهر البلاغة ٣٦٩.
(١٥) ظ الرمزية في مقدمة القصيدة ١١ وقد عرض لجهود القدماء، ولعلّ الفكرة قريبة من تقنية الإعداد ظ علم الدلالة ٢٦.
(١٦) ظ دير الملاك ٣٤٢.
(١٧) ظ قضايا الشعر المعاصر ٢٧٦.
(١٨) ظ علم البديع ١٩٥.
(١٩) ظ في معرفة النص ١٠١.
(٢٠) ظ نظريات نقدية وتطبيقاتها ١٩٦.
(٢١) ظ وعي الاختيار (بحث) ٤.
(٢٢) ظ سورة الروم ٣٦.
(٢٣) الاتجاهات النقدية ١٢٤.
(٢٤) مختار الصحاح ج د ل.
(٢٥) ظ بدر شاكر السياب قراءة أخرى ٥٦+ دراسات نقدية من الاسطورة الى القصة ١٠٠.
(٢٦) ظ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الاتجاهات النقدية الحديثة – عمر كوش – ط١ دمشق ٢٠٠٣.
- أدب الطف – جواد شبر – من الانترنت.
- بدر شاكر السياب قراءة أخرى – د. علي حداد – ط١ – الاردن – ١٩٩٨.
- بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر – مرشد الزبيدي – بغداد ١٩٩٤.
- تاريخ النقد العربي الى ق٤ – د. محمد زغلول سلام – مصر ١٩٦٤ – ج١.
- جواهر البلاغة – احمد الهاشمي – ط١٢ – بيروت.
- دراسات نقدية من الاسطورة الى القصة القصيرة – د.احمد زياد محبك – ط١ دمشق ٢٠٠١.
- دلائل الاعجاز – عبد القاهر – القاهرة – ١٩٦٩.
- دير الملاك – محسن اطيمش – بغداد ١٩٨٢.
- الرمزية في مقدمة القصيدة – احمد الربيعي – النجف – ١٩٧٣.
- علم البديع – عبد العزيز عتيق – بيروت ١٩٨٥.
- على الدلالة – جرمان ولومان – تح نور الهدى – دمشق ١٩٩٤.
- العمل الأدبي من المعنى الى الشكل – عباس أمير – ط١ دمشق ٢٠٠٥.
- في معرفة النص – يمنى العيد – ط٢ بيروت ١٩٨٤.
- قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة – ط٦ بيروت ١٩٨١.
- المبنى الحكائي في القصيدة الجاهلية – د. عبد الهادي الفرطوسي – ط١ بغداد ٢٠٠٦.
- مختار الصحاح – الرازي.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي.
- نظريات نقدية وتطبيقاتها – د. احمد رحماني – ط١ القاهرة ٢٠٠٤.
- نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين – د. الفت كمال الروبي – ط١ بيروت ١٩٨٣.
- نظرية المنهج الشكلي– نصوص الشكلانيين الروس – ت ابراهيم الخطيب – بيروت ١٩٧٢.
- وعي الاختيار وقصيدة التوزيع في قصيدة المدينة للبياتي – (بحث) ادريس طارق، كلية التربية/ جامعة بابل ٢٠٠٨.